دور الفلسفة في مجتمعنا المعاصر

لسنا بصدد التساؤل عما اذا كانت هناك فلسفة عربية معاصرة أم لا ، ولكننا بصدد التساؤل عما اذا كانت الفلسفة قد أدت دورها فى مجتمعنا العربى المعاصر أم لا • وفارق كبير بين السؤالين : فان الاول منهما يطرح قضية محلية هى ظهور فكر فلسفى معاصر فى منطقة معينة من مناطق العالم ، بينما يطرح الثانى منهما قضية حضارية هى مدى تأثر مجتمعنا العربى المعاصر بالروح الفلسفية على اعتبار أن « الفلسفة » رافد هام من الروافد الاساسية التى تغذى المجرى الأصلى لنهر الحضارة • ونحن نزعم أن « الفلسفة » لم تؤد بعد دورها الحضارى الهام فى مجتمعنا العربى المعاصر ، وأنه ما يزال علينا — نحن المشتغلين بالحركة الفكرية فى مصر — أن نشارك فى النهوض بمهمة بث الروح الفلسفية فى المناخ الفكرى العربى • ومن هنا فاننا سنحاول — فى هذه العجالة القصيرة — أن نكشف عن الأبعاد التى لابد للروح الفلسفية من أن تمتد اليها فى صميم كياننا العربى ، حتى نضع أيدينا على نقاط الضعف فى البناء الفكرى لمجتمعنا المعاصر ، آملين من وراء ذلك تهيئة الجو لظهور فكر عربى حر •

نحن فى حاجة الى نزعة «عقلانية» أصيلة

ولعل أول ما يروع الباحث العربى — حين يتصدى للحديث عن دور الفلسفة — هو هذا التشكك المريب الذى تلقاه « الفلسفة » عندنا من جانب السواد الاعظم من الناس ! فالفلسفة — فى مجتمعنا — كلمة مشبوهة ممجوجة ، والناس عندنا يستخدمون هذه الكلمة للاشارة الى لغو الحديث وهذره ! وليس من السهل أن نعيد الى هذا اللفظ المنبوذ « حق المواطن » فى عالمنا اللغوى المعاصر : فان الاستعمال الشائع لكلمة « الفلسفة » قد ألقى على هذه الكلمة ظلالا كثيفة من التوجس ، والريبة والاشتباه والغموض ••• الخ • ولكن من واجبنا — مع ذلك — أن نسهم فى تصحيح هذا الفهم الخاطىء لكلمة « الفلسفة » ، عن طريق العمل على تقديم نماذج فلسفية سليمة للاجيال التى تتلقى دروس فلسفية لها فى التعليم الثانوى ، بحيث يفهم النشىء العربى أن الفلسفة ليست تعقيدا لما هو واضح ، بل توضيحا لما هو معقد • ونحن نعلق أهمية كبرى على أول احتكاك للطالب المصرى بالفلسفة : فان من شأن هذا الاحتكاك — اذا كان قاصرا أو غير موفق — أن يخلق فى

د. زكريا ابراهيم

نفس الشباب احساسا غامضا بعقم التفكير الفلسفي أو عدم جدواه ! ولا شك أن الانطباعات السيئة التي قد تتولد في نفوس شبابنا عن الفلسفة ، كثيرا ما تكون ثمرة لهذه المعالجة المشوهة أو الشائهة لقضايا الفلسفة ، على أيدى بعض من القائمين على تدريس هذه المادة في مدارسنا الثانوية . وهذا ما يدفعنا الى التشديد على ضرورة معاودة النظر فيما بين أيدى طلابنا من كتب فلسفية ، حتى تكون هذه الكتب – بين أيدى المدرسين والطلاب – عونا على فهم الفلسفة ، وتوعية صحيحة لدورها في حضارتنا العربية الراهنة ، لا مجرد تجميع لبعض المعلومات الفلسفية المشوهة التي قد لا يرى فيها الطالب سوى حشد مهوش من الأفكار ! .

والحق أنه ليس المهم – بالنسبة الى الطالب المبتدىء – أن يلم ببعض المعارف السطحية عن الواقعية ، والمثالية ، والبرجماتية ، والماركسية ، والوضعية المنطقية .. الخ ، بل المهم أن يقف على روح « الايمان الفلسفي » ، من حيث هو ايمان بالعقل ، وثقة في قدرته على المعرفة ، واعتراف ضمني بامكان الوصول الى الحقيقة . ولعل ما عبرنا عنه – في آخر ما كتبنا نقول : « انه لا يمكن أن تقوم فلسفة ضد العقل ، اللهم الا اذا أمكن أن يقوم فن ضد الجمال، أو دين ضد الله » ! صحيح أن تاريخ الفلسفة قد عرف الكثير من النزعات الشكية ، واللا أدرية ، والنسبية ، واللا عقلية (وغيرها مما يدخل في هذا الباب) ، ولكن من المؤكد أن « البشرية العاقلة » (على حد تعبير هوسرل) لم تكن ترى في كل هذه الاتجاهات المناهضة للعقلانية سوى مجرد أشكال سيئة أو صور فاسدة للعقلانية ، وكأن من شأن « العقل » حين يستبد به الكسل ، أو حين يقعده التواكل عن مواصلة البحث ، أن يقنع بأمثال هذه النزعات اللافلسفية ! ومن هنا فقد أصبح لزاما علينا ، نحن المشتغلين بالفلسفة (بوصفنا « رسل الإنسانية الناطقة » – على حد تعبير هوسرل مرة أخرى –) أن نعمل على استمرار « التقليد العقلاني » ، وأن نعيد الى أهل العصر الحاضر ثقتهم الضمنية بجدية البحث عن الحقيقة . ولا شك أن كل جهد يبذل في سبيل استرجاع الايمان الفلسفي الحقيقي ، انما هو جهد انساني يحقق للبشرية وحدة عقلية شاملة (١) .

(١) Husserl : La Crise des Sciences Européennes, Trad. E. Gerrer, in Etudes Philosophiques, 1949, pp. 139-142.

ونحن ـ فى مجتمعنا العربى المعاصر ـ أحوج ما نكون الى مثل هذا الاتجاه العقلانى الأصيل : قد سيطرت على نفوسنا ـ منذ عهد بعيد ـ نزعات عاطفية متطرفة ، واتجاهات وجدانية هوجاء ، حتى أصبح المحرك الأوحد لكل أفكارنا ، وأفعالنا ، وسائر مظاهر نشاطنا ، انما هو « وأفعالنا » . وليس فى وسع أحد ـ بطبيعة الحال ـ أن ينكر دور « العاطفة » فى تحديد الكثير من مظاهر السلوك البشرى (وفى مقدمتها : الحياة الخلقية) ، ولكن الذى لا نزاع فيه أن « المواقف الوجدانية » لا تكفى وحدها لخلق « روح فلسفية » ، أو ارساء دعائم أية « عقلية علمية » ، وهذا هو السبب فى أن العديد من أحكامنا ـ ان فى مجال الفكر ، أم فى مجال السياسة ، أم فى مجال التنظيم الاجتماعى ، أم فى مجال التخطيط الاقتصادى ، أم فى غير ذلك من المجالات ـ قد بقيت أحكاما عاطفية تغلب عليها صبغة الاندفاع الوجدانى ، وتسيطر عليها سمة التهور الانفعالى ! وقد كان آخر مظهر لهذا الاندفاع الوجدانى الأهوج ، ما سجلته « عدسات التليفزيون » فى العالم أجمع ، يوم الاحتفال بتشييع جثمان بطلنا العظيم جمال عبد الناصر ، حين اندفعت جماهير الشعب نحو نعش الفقيد ، تنتزع العلم الملفوف به ، وتحاول حيلولة دون اتمام مراسيم الجنازة ! ومهما يكن من أمر تعلق الشعب بزعيمه الراحل ، وعجزه عن تصديق نبأ موته ، فقد كان الظن بشعب يحترم جلال الموقف ، ويقدس رهبة الموت ، أن يكتم عواطفه ، ويتحكم فى مشاعره ، حتى يكون لموكب الراحل العظيم ـ وهو فى طريقه الى مثواه الأخير ـ جلاله القدسى الذى يليق بأمثاله من عظماء الرجال . ولكن عواطفنا الملتهبة ، وأحزاننا المتأججة ـ مع الأسف الشديد ـ هى التى سيطرت على الموقف بأسره ، فلم نستطع أن نواجه « الموت » بالاستجابة الملائمة اللائقة بكائنات عاقلة ! وليست هذه الواقعة ـ فى نظرنا ـ سوى نموذج واحد (بين نماذج أخرى كثيرة) لهذه النزعة العاطفة المتطرفة التى كثيرا ما تجىء فتشل قوانا العاقلة ، وتجعلنا عاجزين ـ أو شبه عاجزين ـ عن اصدار الحكم العقلى الراجح ، أو الاستجابة للمواقف بطريقة واعية سليمة . وليست « النزعة العقلانية » هبة فطرية قد اختص بها شعب دون آخر ، بل هى عادة مكتسبة يمكن أن تصبح لدى أى شعب من الشعوب ـ تحت تأثير التربية والدربة والممارسة ـ عادة عقلية يصدر عنها الأفراد فى كل سلوكهم . ولا شك أن « التفكير الفلسفى » عامل من ضمن العوامل الأساسية التى تساعد الأفراد على اكتساب هذه « العادة العقلية » : لأنه تدريب ذهنى ينمى لدى الفرد وظيفة الحكم ، ويعينه على الاستجابة للمواقف بروح موضوعية .

ولابد أيضا من « تفكير منهجى »

وقد دلتنا التجربة على أنه ليس أخطر على الحياة الفكرية فى أى مجتمع ، من أن تكون « الثقافة » التى يحيا عليها أفراد ذلك المجتمع مجرد مجموعة من « الأفكار الجاهزة » أو « الاطارات العقلية الجامدة » ، التى يسلم بها الناس تسليما دون أن يتساءلوا مطلقا عما تنطوى عليه من معان ، أو ما تستند اليه من فروض . وأما « الفكر المفتوح » الذى لا يكف عن الرجوع الى الأصول ، والبحث عن الافتراضات الأولية ، دون التمسك بأية آراء مسبقة ، أو التشبث بأية أفكار جاهزة ، فهو وحده « الفكر الحر » الذى لا يكف عن معاودة البحث ومطارحة المسائل ، من أجل الانطلاق فى آفاق البحث العقلى ، غير متقيد الا بما يمليه عليه المنطق ، وما يتطلبه منه الاستدلال المنهجى السليم .

والواقع أننا أحوج ما نكون اليوم الى « تفكير منهجى » لا يستخرج من المقومات الا ما يلزم عنها بالضرورة من نتائج ولا يترك فى سلسلة استدلالاته العقلية أية فجوات أو ثغرات ، بل يحاول دائما أن يلتزم فى أبحاثه ودراساته قواعد « المنهج الرياضى » التى طالما أشاد بها كل من ديكارت ، ولينبتس ، وهوسرل وغيرهم . واذا كنا قد دأبنا على الانتقاص من قدر الفلسفة ، والتقليل من شأن « التفلسف » ، فقد آن لنا الاوان ـ اليوم ـ لأن ندرك دور الثقافة الفلسفية فى تزويد الناس بروح الدقة ، والتحديد ، والصراحة . ونحن حين نتحدث عن أهمية « التفكير المنهجى » ، فانما نعنى أنه لابد للباحثين عندنا من توخى الدقة فى استخدام المصطلحات ، ومراعاة التسلسل المنطقى فى تنظيم الأفكار ، والتزام قواعد البحث العلمى فى التفكير . وليس من شك فى أن دراسة مناهج العلوم كثيرا ما تكون بمثابة مدخل ضرورى الى أية دراسة علمية كائنة ما كانت . فما أحوجنا الى ادخال هذه المادة الأكاديمية على شتى مناهجنا التعليمية فى كافة كلياتنا الجامعية . والحق أننا نلاحظ ـ فى كثير من الأحيان ـ أن معظم طلابنا فى الجامعة يجيدون تجميع المعلومات وعرض

الآراء ، ولكنهم قلمـــا يحفلون بالتزام قواعد « المنهج » فى أبحاثهم العلمية • ومن هنا فقد أصبحت الحاجة ماسـة اليوم الى التشديد على أهمية « التفـكير المنهجى » ، وتأكيـد دور « التحليل المنطقى » فى كل دراسة علمية جادة • وهذه المهمـة انما تقع أولا بالذات على عاتق أساتذة الفلسفة والمنطق فى الجامعات العربيـة المختلفة : لأنه لابد للأجيال الناشئة من أن تعرف أهمية « المنهج » ، قبل الاقدام على القيام بأى بحث ، وليس أقدر من رجالات الفلسفة على نشر الروح المنهجية ، وتعريف الشباب بقواعد المنهج العلمى ، خصوصا وقد أصبح معيار النجاح فى أى ميدان من ميادين البحث هو سلامة « المنهج » المستخدم فيه ••

••• دور « الفلسفة » هو دور « الحوار الفكرى » الحر •••

لقد كان هيجل يقول – فى معرض الحديث عن ترقى الوعى البشرى عبر التـاريخ – **ان الشرقيين لايعرفون أن الروح أو الانسان باعتباره كذلك ، انمـا هو فى ذاته حر • ونظرا لأنهم لا يعرفون ذلك ، فانهم ليسوا كذلك – يعنى أنهم ليسوا أحرارا – وكل ما يعرفه الشرقيون أن ثمة انسانا واحدا هو وحده الموجود الحر • ولكن هذه الحرية نفسها لا تزيد عن كونها حرية تعسـفية بربرية ، تكشف عن انحطاط العقل وتدهوره ، تحت تأثير نزوات العـاطفة وأهوائهـا » (٢) •** ولسنا بصدد الحكم على مدى صحة رأى هيجل أو مدى مجانبته للصواب ، بل كل ما يعنينا هنا هو أن نشير الى الصلة الوثيقة التى أقامها هيجل بين ترقى الوعى من جهة ، وتزايد شعور الأفراد بالحرية من جهة أخرى واذا كان هيجل قد جعل ظهور الفلسفة على مسرح الحضارة البشرية رهنا بتقدم الانسان ، وتزايد احساسه بالحرية ، فذلك لأنه قد فطن الى أن من أخص خصائص الروح الفلسفية أنها روح البحث المسـتمر ، والحـرية الفكرية ، والتسامح العقلى ، والرغبة الدائمة فى الحوار مع الآخرين • والحق أنه لا يمكن أن تكون ثمة فلسفة ، مالم يكن هناك أولا شعور بالحرية ، وايقان بأن الحق فوق القـوة ، واعتراف بأن العلاقات البشرية ينبغى أن تقوم على التفـاهم والتسامح ، لا على التخاصم والتنازع • ولعل هذا ما عناه أحد الباحثين المعاصرين حين كتب يقول :

« ان الفلسفة لا تبدأ الا حينما يتهيأ للبشر أن ينازلوا عن روح العنف والشدة ، لكى يستعيضوا عنها بروح التفاهم والمودة » (٣) •

واذا كان للفلسفه – اليوم – أن تقوم بدور فعال فى مجتمعنا العربى المعـاصر ، فلابد لكل منا – كائنا ما كان وضعه فى المجتمع – ان يفهم أنه مواطن حر ، وأن حريته لا تعنى الانطواء على نفسه ، أو قطع وشائج التواصـل بينه وبين الآخرين ، بل هى تعنى الحوار مع غيره من أبناء الجماعه ، وتحقيق المزيد من أسباب التفاهم بينه وبين الآخرين • وما دامت الفلسـفة حـديث الانسان مع الانسان ، وحـوار المواطن الحر مع المواطن الحر ، فلا يمكن للروح الفلسفية الحقة أن تقترن بالتحزب أو التعصب أو العداء أو الاستبداد بالرأى ، بل هى لابد من أن تكون حليفة الحرية والتسامح والانفتـاح وسـعة الأفق • وان الفيلسوف ليعلم أن الشجاعة هى أول شرط من شروط التفكير الحر ، فليس بدعا أن نراه يحمل على « الخوف » باعتبـاره أعدى أعـداء الروح الفلسفية الحقيقية • ونحن اليوم – فى مجتمعنا العربى المعاصر – أحوج ما نكون الى مفـكرين أحرار ، أمناء ، يفهمون أن الشجاعة الفكرية هى الشرط الأول لكل نزاهة عقلية ، وأن الصراحة مطلب أساسى من مطالب كل تفكير حر • ومن هنا فقد أصبح لزاما علينا – فى هذه الحقبـة التاريخية الهامة من حقب تطورنا الحضارى – أن نفسح المجال للحوار الفكرى ، وأن ندعو المفكرين الى مطارحة الآراء الحرة ، واثقين من أن كل محاولة للتحكم فى العقول ، لابد من أن تـكون أسوأ بكثير من أية محاولة للتحكم فى الجسوم ! وليس اختلاف الآراء فى حـد ذاته شرا ، بل الشر أن يقوم الرأى على الجهل ، والتعصب ، وضـيق الأفق ! وأما الحوار الفـكرى الصحيح ، فهـو لا يمكن الا أن يولد مجتمعا مسـتنيرا واعيا ، شعاره التواصل العقلى ، وقوامه الانفتـاح على شتى التجارب الحية ••

ولكن ، لا حوار بدون خلفية فلسفية سليمة ••

بيد أن الحوار الفكرى الصـحيح لا يمكن أن يقوم بين قوم لا يملكون أية خلفية فلسفية ، بل هو يستلزم بالضرورة الماما واعيـا بأهم قضايا الفكر وشتى اتجاهات الفلسفة قديما وحديثا •

Eric Weil : Logique de la philosophie, 1950, Ch. I et II.

(2) Hegel : **La Raison dans l'Histoire,** Paris, 1965, p. 83.

وكثيرا ما نجد أناسا ينادون بالحوار ، ويدعون الى المناقشة ، دون أن يفطنوا الى أن الحوار الذى يقوم بين أطراف لا علم لها بموضوع المناقشة هو حوار عقيم لا جدوى منه ولا طائل تحته ! ولسنا ندرى ـ مثلا ـ كيف ننتظر من مواطنين لم يدرسوا الاتجاهات السياسية أو الاجتماعية السائدة فى مختلف أرجاء العالمين الشرقى والغربى ، أن يكونوا على وعى بقيمة هذا الاتجاه أو ذاك ، أو أن تكون لهم أدنى دراية بمزايا (أو عيوب) هذا النظام أو ذاك ! ومن هنا فان دور الفلسفة فى مجتمعنا العربى المعاصر لابد من أن يكون هو دور المعلم الذى يقوم بمهمة « التوعية » . ونحن نعرف أن صحفنا الأدبية ومجلاتنا الثقافية حافلة بالكثير من الأسماء ، عامرة بالعديد من الشعارات ، ولكننا قلما نجد لدى جمهور القراء ادراكا واعيا لحقيقة أمر أصحاب تلك الأسماء ، وأهل هذه الشعارات .. الخ . ولعل هذا ما لاحظه كاتب هذه السطور لدى العديد من طلابه دارسى الفلسفة فى جامعاتنا العربية : فان معظم المعلومات المتوافرة لديهم عن المذاهب الاجتماعية والأنظمة السياسية هى فى الغالب معارف مهوشة مشوشة تفتقر الى الكثير من الدقة والصرامة والتحديد ! وليس فى استطاعتنا أن ندعو مثل هؤلاء الطلاب الى الحوار ، أو أن نفسح أمامهم المجال للمناقشة ، اللهم الا بعد أن نكون قد زودناهم بالمعلومات الصحيحة التى تسمح لهم بالحوار ، وتؤهلهم للقيام بالمناقشة . واما أن نتركهم يتناقشون ويتحاورون ـ دون أن تكون لديهم أية خلفية فلسفية سليمة ـ فاننا عندئذ انما نسهم فى العمل على زيادة حظهم من التعثر والتخبط والاضطراب الفكرى ! .

والواقع أن الكثير من دعاة الفكر الحر ينسون ـ أو يتناسون ـ أن الحرية الفكرية لايمكن أن تقوم فى فراغ ، بل لابد من أن تستند الى توعية عقلية صحيحة ، يستطيع معها المواطن الحر أن يكون على دراية واعية بالأطراف التى يحقق اختياره فيما بينها . وقد يخيل الينا ـ فى بعض الأحيان ـ أنه لا جدوى من دراسة آراء افلاطون وأرسطو ،والقديس أوغسطين والقديس توما الاكوينى ، والغزالى وابن رشد ، وبيكون وديكارت ، وكانت وهيجل ، وماركس ، ونيتشه ، وهوسرل ، وهيدجر ، وسارتر ، وغيرهم من رجالات الفلسفة قديما وحديثا ، ولكن من المؤكد ان تاريخ الفلسفة جزء هام من التاريخ العام للحضارة البشرية ، بحيث قد

يستحيل علينا أن نقيس مدى التقدم التاريخي عموما دون الرجوع الى تقدم الأفكار الفلسفية بصفة خاصة • وليس أيسر على الباحث المتهور أو المتعجل من أن يضرب صفحا عن تأملات الفلاسفة ، بدعوى أنها مجرد أحلام خيالية أو نظرات واهمة ، ولكنه ـ عندئذ ـ انما يتعامى عن حقيقة تاريخية هامة : ألا وهي أن النظر العقلي هو المحرك الأساسي للتقدم الاجتماعي • وهل كان تأثير أرسطو أو بيكون أو ديكارت أو كانت أو هيجل أو ماركس ، على مجرى الحضارة البشرية بصفة عامة ، أقل من تأثير الاسكندر أو قيصر أو شرلمان أو نابليون أو غيرهم من القادة العسكريين ؟! •

ولابد للفلسفة أيضا من أن تجيء فتستثير احساسنا بالقيم

على أن الفلسفة ليست مجرد قوة فكرية فانها تعمل جنبا الى جنب مع سائر القوى التاريخية الفعالة التي تغير المجتمع وتتحكم في سير الاحداث ، بل هي أيضا أداة أخلاقية لابد أن تجيء فتثير احساسنا بالقيم ، وتنمي قدرتنا على الاعجاب • والملاحظ ـ في مجتمعنا الراهن ـ أن الناس قد أصبحوا جامدين متبلدين ، لا شيء يلهمهم ، ولا شيء يمسهم ، ولا شيء يحرك كوامن وجودهم الباطني • وهذا هو السر في أن الحماسة قد اختفت ـ أو كادت ـ ، كما أن القدرة على التعجب قد أمحت ـ أو أوشكت ـ ولا شك أن الانزلاق على سطوح الأشياء (كما لاحظ هارتمان) يمثل أسلوبا سهلا من أساليب الحياة ، فليس من الغرابة في شيء أن نجد الانسان العادي عندنا مرتاحا الى هذا الأسلوب السطحي من أساليب الحياة ، دون أن يفطن الى ما يكمن وراءه من « خواء باطني » ! • وهذه الضحالة في الاحساس بالقيم تقترن عندنا ـ في العادة ـ بأحاسيس الجدب ، والسأم ، وعدم الاكتراث ، لدرجة أن الكثيرين قد أصبحوا يحيون ، دون أن يكون لديهم أي وعي حقيقي بالحياة التي يعيشونها ! ولا سبيل الى علاج هذا المرض الأخلاقي ، اللهم الا باستثارة ما لدى الانسان العربي من قدرة على التحمس والاعجاب ، من أجل دعوته الى رؤية القيم ، والاحساس بثراء الحياة •

والحق أن الكثيرين قد يتوهمون أن الحياة هي الاشباع المادي ، وأن السعادة هي « الرفاهية » ، فلم يعد الناس يرون من « القيم » سوى جانبها النفعي • ولا شك أن العامل أو الرجل الكادح حين يتصور أن الغني يتمتع بكل ما هو في حاجة اليه ، فانه قد يتناسى أن هناك قيما أخرى غير « الرفاهية » ، وأن « السعادة » ليست بالضرورة مجرد نتيجة لضرب من « الحساب النفعي » • ومن هنا فانه قد يكون من واجب فيلسوف الأخلاق ـ في مجتمعنا العربي المعاصر ـ أن يسلط الأضواء على الكثير من « القيم » التي يتجاهلها الناس : كالمعرفة ، والثقافة ، والتذوق ، والفن •• الخ • وربما كان الخطر الأكبر الذي يتهدد المأخوذين بسحر المنفعة هو الوقوع تحت « وهم اللذة » ، أو « خداع السعادة » ، مما قد يدفع بهم نحو الجري ـ عبثا ـ وراء سراب المنفعة ، لكي لا يلبث الواحد منهم أن يجد نفسه ـ في خاتمة المطاف ـ أمام تهاويل براقة لا تخلف وراءها سوى الاحساس بالخواء ! واذا كان من واجبنا اليوم أن نعمل على تذوق قيم الحياة ـ بكل ما فيها من وفرة وامتلاء ـ فذلك لأن احساس المرء بوجوده رهن بتلك الحساسية الأخلاقية المترقية التي تتفتح لشتى ضروب الثراء الكامنة في الحياة • ولابد لفيلسوف الأخلاق من أن يجيء فيحاول استثارة قدرتنا على الاعجاب ، حتى يصبح في مقدور الانسان العربي أن يدهش ، ويعجب ، ويتحمس ، ويتذوق ، ويعاود النظر الى عالم الأشياء والأشخاص والأحداث بعين نفاذة ترى « القيم » ، وتدرك « المعاني » ! وسيظل الانسان المتحضر الواعي بذاته ، هو على النقيض تماما من الرجل الجافي الغليظ المتبلد ، أو الانسان المغلق المقفر المتجمد ، لأن الوعي وثيق الصلة بالتذوق ، ولأن الحضارة تسير دائما جنبا الى جنب مع تزايد الحساسية بالقيم • أفلا يحق لنا من أن نقول انه لابد للفلسفة ـ في مجتمعنا العربي المعاصر ـ من أن تجيء فتعمل على استثارة احساسنا بالقيم ؟ •

والفلسفة كذلك « أداة رفض » ، و « وسيلة نقد » ••

ولكننا لن نستطيع أن ندرك الدلالة الحقيقية للقيم ، ما لم نشرع ـ بادىء ذي بدء ـ في نقد ما بين أيدينا من « متواترات » ، و « رفض » ما اعتدنا الأخذ به من « مسلمات » • والواقع أن الفلسفة ـ في كل زمان ومكان ـ قد عملت على محاربة السذاجة ، والامعية ، والتصديق

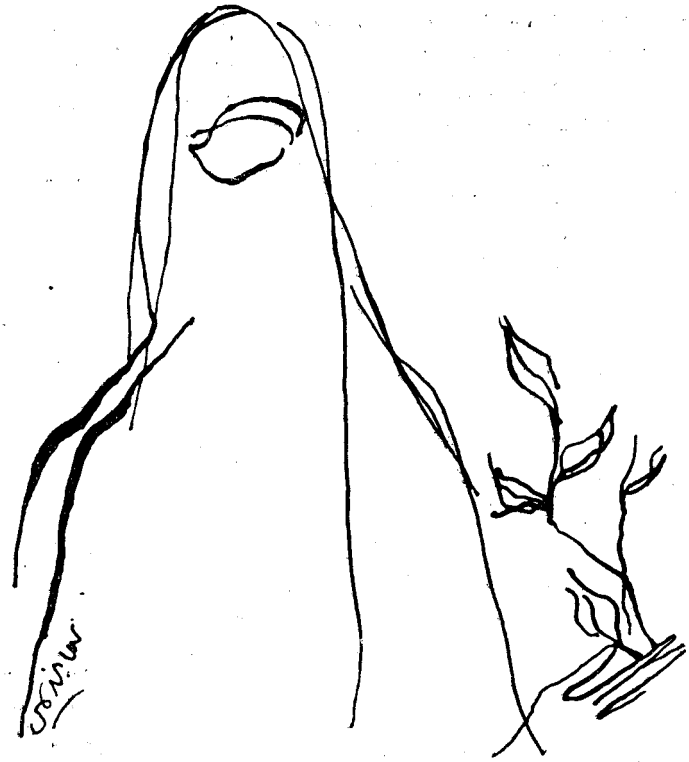

السريع حتى لقد كان الفلاسفة على مر العصور موضع شبهات الجماعة ، ومثار توجس الجماهير ، ولا ريب ،فانه ليس من طبيعة الروح الفلسفية ان تقنع بما بين أيدى الناس من حقائق ومعتقدات ، بل هى لا بد من أن تضع كل هذه الآراء المسبقة موضع البحث ، حتى يتسنى لها أن تعيد بناءها من جديد على دعائم نقدية يقرها العقل . و ((الرفض)) هو تلك القوة النقدية الكبرى التى تنتقل بالناس من عهد ((الأسطورة)) الى عهد ((التفكير)) . واذا كان مجتمعنا العربى المعاصر أحوج ما يكون الى الروح الفلسفية ، فما ذلك الا لأن الناس عندنا يفتقرون بالفعل الى العقلية النقدية التى تعرف كيف تواجه الشكوك والأكاذيب والخرافات بكلمة « لا » ، بدلا من الاقتصار على قبول آراء ظنية وافكار زائفة لا تستند الى أية دعامة ثابتة ، ولا تقوم على أية ركيزة متينة . وليس المقصود بالرفض هو الهدم لمجرد الهدم ، أو الانكار لمجرد الانكار ، بل المقصود بالرفض هو القضاء على الأساطير الوهمية الكاذبة التى ما يزال الناس يرون فيها «حقائق» واضحة بينة ! وهذه العملية السلبية هى المرحلة الأولية الضرورية أو الخطوة الأساسية الجوهرية، لقيام « وعى فلسفى » صحيح يكون بمثابة اليقظة الروحية التى تنتقل بنا من عهد « الأسطورة » الى عهد « التفكير » .

وكثيرا ما نلاحظ ـ حتى لدى بعض المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا ـ مجرد اهتمام بالأخذ عن كتاب الغرب ، أو الحرص على ترجمة أفكارهم الى لغتنا العربية ، دون العناية بنقد تلك الأفكار أو تمحيصها ، وكأن كل ما كتبه فلاسفة أوروبا وأمريكا لابد بالضرورة من أن يكون صحيحا ! وهكذا سرت بيننا عدوى النقل، وحمى الترجمة ، حتى لقد اقتصرت جهود الكثيرين (من خيرة الأساتذة عندنا) على تعريب الكتب الأجنبية ، أو تلخيصها ، أو النقل عنها !

ولسنا ننكر أهمية الترجمة (خصوصا حين يتعلق الأمر بأمهات الكتب الغربية فى الفلسفة أو الاجتماع أو السياسة أو غير ذلك) ولكننا لانتصور أن تقف كل جهودنا العلمية عند الترجمة ، أو أن تقتصر كل مظاهر نشاطنا الفكرى على النقل ! وكان الظن بالكثير من الباحثين عندنا أن يكونوا أهل تمحيص ونقد ، لا مجرد اقلام مرددة تقتصر على التعريب والنقل ! ولو أننا عنينا ـ منذ البداية بتنمية روح النقد لدى أبنائنا ، وتزويدهم بالعقلية الفلسفية القادرة على الرفض ، لما شب النشء عندنا على التقليد والمحاكاة ، أو الترديد والاتباع ، بل لوجدوا فى نفوسهم حافزا الى التجديد والمبادأة ، ان لم نقل الابتكار والابداع . ومن هنا فان المهمة الكبرى التى تقع على عاتق القائمين بتدريس الفلسفة ـ فى المدارس الثانوية وفى الجامعات على السواء ـ هى العمل على تعليم النشء كيف يفكر ، بدلا من الاقتصار على تزويده ببعض الأفكار الجاهزة ! ولا يمكن أن تنشأ لدينا مثل هذه « اليقظة الفكرية » ما لم نحاول ـ أولا وقبل كل شىء ـ النهوض من ذلك السبات الأسطورى الذى ما زال يخيم على عقولنا !

وأخيرا ، ليست الفلسفة مجرد حفاظ على الماضى ، بل هى أيضا انطلاق نحو المستقبل !

وهنا قد يقال : « **ان لدينا تراثا فلسفيا عربيا ، ولابد لنا من العمل على بعث هذا التراث ، فانه لا يمكن لأية نهضة فلسفية معاصرة أن تتجاهل ماضى الفكر العربى** » . ونحن لانشك لحظة واحدة فى أن حاضرنا الفكرى المعاصر هو من جهة استمرار لاتجاهاتنا الفكرية الماضية ، وهو من جهة أخرى انطلاق نحو آفاق المستقبل . ولكننا لا نريد للماضى أن يكون مجرد مخدر يشل حركتنا ، ويحول بيننا وبين الابتكار أو التجديد . وكما حاول أسلافنا وأجدادنا وضع ثقافة عربية أصيلة (دون الاقتصار على ترديد التراث اليونانى) ، فكذلك لابد لنا اليوم من العمل على التفكير بحسابنا الخاص (دون الوقوف عند ترجمة الثقافة الغربية) . وأما أن ينصرف كل ـ أو جل ـ اهتمام المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا ، الى تحقيق المخطوطات القديمة ، والعمل على نشر التراث العربى ، فهذا ما قد يجعل منا مجرد نقلة ومرددين ، دون أن يقوم بيننا مجتهدون أو مجددون . وليس من شك فى أن افلاس الفكر العربى المعاصر ـ نتيجة لظروف عديدة لا مجال للحديث عنها فى هذا المقال ـ هو الذى حدا بالكثيرين الى الارتداد نحو الماضى ، من أجل العمل على بعث تراثنا العربى القديم ، دون المساهمة بأية اضافة جدية حقيقية

ونحن لا ننكر أهمية تحقيق التراث العربى القديم ، والعمل على نشر أمهات الكتب العربية القيمة فى الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه (وغير ذلك) ، ولكننا لا نتصور أن يقتصر كل انتاجنا الفلسفى على أعمال التحقيق والترجمة ، دون أن يتجاوز هذه المحاولات التقليدية للحفاظ على الماضى ، من أجل الاضطلاع بجهود ابداعية تكون بمثابة انتاج فلسفى جديد . وليس ما يمنع ثقافتنا الراهنة من أن تستند الى ثقافة الماضى ، وتستلهمها ، وترتكز عليها ، ولكن لا معنى لأن تكون كل ثقافتنا المعاصرة مجرد محاكاة لثقافة الماضى ، وترديد لأقاويل القدماء ، وسير على نهج الأولين ! ومن العجيب أن بعضا من المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا قد بدأوا حياتهم الفكرية بأعمال أصيلة لم تكن تخلو من محاولات جدية للقيام ببعض الاضافات الجديدة ، ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا عن هذا الاسهام الابداعى ، من أجل الاقتصار على القيام بأعمال التحقيق ونشر التراث العربى القديم !

بيد أن الاضطلاع بأمثال هذه الاضافات الفكرية لا يمكن أن يتهيأ لرجالات الفكر العربى المعاصر ، اللهم الا اذا توافر لهم المناخ الروحى الملائم ، بحيث يكون فى وسعهم التحرر من أسر ضغوط الماضى ، دون الوقوع تحت سحر التيارات الغربية المعاصرة . ونحن ـ فى مجتمعنا العربى الراهن ـ على وعى تام بتفوق الغرب علينا فى مضمار العلم ، والفن ، والفلسفة ، وشتى مظاهر الثقافة ، ولكننا على ثقة أيضا من أنه ليس ما يمنعنا نحن العرب ـ بشرط أن تتوافر لنا الظروف الملائمة ـ من أن نقوم بدورنا الحضارى فى العالم المعاصر ، بحيث يجىء مستقبلنا الثقافى أفضل بكثير من ما ضينا . وهكذا نرى أن الحديث عن دور الفلسفة فى مجتمعنا العربى المعاصر ، لا بد ـ فى خاتمة المطاف ـ من أن يقودنا الى التساؤل عن السر فى عدم ظهور فلسفة عربية معاصرة ، وهو السؤال الذى لا بد لنا من اثارته فى بحث قادم ، حتى نكون بذلك قد أجبنا على السؤالين اللذين ميزنا بينهما فى فاتحة هذا المقال .

زكريا ابراهيم